# مهد اللغة

العدد الرابع – 1989

الاخ الاستاذ الكاتب
سعيد خاكزاد الخفر
امين
١٣١٢/١٢/١٤

## مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

(اسست في الهند سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م)
تصدر مرّة كل ثلاثة أشهر

صاحبها ورئيس تحريرها
محمد سعيد الطريحي

الاشتراك السنوي للافراد 30 $ وللمؤسسات 50 $

تطبع في بيروت وتوزع الى انحاء العالم :
ملتزم التوزيع : مؤسسة أيوب للتوزيع
شارع كليمنصو - بناية الأشقر - الطابق الأول
بيروت - لبنان ص.ب : ٦٣٩٣ / ١١٣
هاتف ٣٦٨٥٣٥ - ٣٦٨٥٣٨
كافة الاشتراكات ترسل إلى :
مجلة الموسم (محمد سعيد الطريحي) لبنان - بيروت - بنك ميكو (فرع شتورة) رقم الحساب : 07. 07. 01. 471659
تلكس رقم : 20729 Mebcgmle
Mawsem Magazne
MOHAMED SAEID TURAYHI
A/C No. 07. 07. 01. 471659
TELEX : 20729 Mebcgmle
MEBCO EAST BANKING Co. S. A. L.
CHTAURA BRANCH Lebanon

shiabooks.net

# زينب في يوم الطف

## عبد العزيز سيد الأهل

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

باتت سوق الحدادين في الكوفة ليالي طوالاً لا تنطفىء فيها نار الحديد ، قد جنّدت بأمر ابن زياد لتحد فيها الاسنة وتشعّب السهام وتنقع في السم القاتل[1] . فلما اقبل على الكوفة قطار المنايا وحط الحسين رحله انتبهت له نبأة القدر ، فما كاد يضرب خيامه حتى اقبل على الطفّ جنود ابن زياد فرقة فرقة حتى صاروا ثلاثين الفاً أو يزيدون ، جاءوا كلهم طمعاً في الدنيا ، وكل منهم على قدر همته في الطمع ، ولو كانت الدنيا كلها مالاً ما كانت بمغنية ولا كافية ، واقبلوا كالسيل المنحدر والليل الزاحف والجراد المنتشر حتى ضاقت آفاق كربلاء من كثرة الرايات يتبع بعضها بعضاً ثم تجمعت هذه الالوية والرايات بالقرب من خيام الحسين .

وكانت زينب عليها السلام قد جعلت خيمتها امام خيام النساء وخلف خيام الرجال من وراء خيمة أخيها بحيث تشرف على الخيام جميعاً من حيث ترى خيمات النساء ولا تراها خيام الرجال . وما كادوا يقيمون حتى سمعت اخاها الحسين يرتجز بشعر محزن وكلمات موئسة فأقبلت تجر ثوبها وهي حاسرة الرأس[2] حتى وقفت على الحسين فرأته يصلح سيفه فقالت زـ هل يا أخي كلام من ايقن بالقتل !

قال الحسين : نعم ، وانتنّ فانظرن ، اذا انا قتلت فلا تشققن عليّ جيباً ولا تخمشن علي وجهاً ولا تقلن هُجْراً .

---

(١) معالي السبطين ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣١٩ .

قالت وقد رأت اخاها مصمماً : واثكلاه ! ليت الموت اعدمني الحياة !

فقال الحسين ـ وقد امسك عن اصلاح سيفه ـ : أُخيّة ، لا يُذهبن حلمك الشيطان !

قالت ـ ولم تكن لتفكر الا في اخيها الحسين ـ : بأبي وأمي أستقلّ نفسي فداءك ! فترقرقت في عينيه الدموع ومال الى سيفه يصلحه وهو يقول : يا اختاه ، لو تُرك القطا ليلاً لنام ! . فقالت زينب ـ وقد فهمت ما اراد ـ : يا ويلتاه ! أفتختصب نفسُك اغتصابا ! فذلك أفرح لقلبي واشد على نفسي ! ثم مضت تجر ذيلها الى خيمتها[1] .

رجعت زينب الى خيمتها وقد فهمت ما اراد الحسين ، وقد اراد انه أبلى عذره وأصبح هو واهله كطير القطا ، قد اظهروا صدقهم ثم حُملوا على المكروه من غير ارادتهم ، وقد كان مسيرهم الى الحق على علم وهدى كالقطا لا تضل الطريق ، وانما عليهم ألاّ يناموا فعند الفجر يقدم الصياد .

ورجعت زينب الى خيمتها تتفطن وتُصغي الى كل صوت كما تتفطن القطا وتصغي ، واذا بها تسمع صيحة في عسكر العدوّ فأسرعت راجعة الى الحسين فوجدته قد اطرق برأسه ووضعه على ركبتيه وكأنما هو نائم يقظان فقالت له : يا أخي ، أما تسمع هذه الاصوات ؟ فرفع الحسين رأسه كأنما يفيق من حلم ثقيل ونظر الى زينب فقال لها : اني رأيت رسول الله الساعة فقال لي : انك تروح الينا .

ولم تكن زينب تجهل صدق هذه الاحلام حين تطيف بهذه العيون ، فأيقنت ان اخاها سيقضي وشيكاً ، لا بد من ذلك ما دام قد رأى جده في حلم مستيقظ يقول له : انك تروح الينا ! فما لبثت حين قال لها الحسين ذلك ان صاحت تقول : يا ويلاه ! فقال لها الحسين : لا تشمتي القوم بنا ، اسكتي يرحمك الله ![2] .

●

كانت بداية يوم الطفّ بداية لتغّير زينب ، كانت بداية لخروجها من ذلك الخدر الذي ضُرب عليها منذ كانت طفلة ، فما كانت ترى الا كما ترى الاشباح من بعد كما رؤيت من قبل في حومة الظلام وهي صبية في مسجد رسول الله ، او كما صادف ذات مرة ان رآها الأشعث بن قيس وهي بين يدي ابيها . او كما رؤيت مسرعة عجلى تجرّ اثوابها بين امائها وهي خارجة من بيت اخيها في المدينة يوم الرحيل .

---

(١) معالي السبطين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) معالي السبطين ج ١ ص ٢٠٤ .

أما في الطفّ فقد بدأت تخرج من هذا الخباء الكثيف ، ولعلها بدأت دورها منذ اجتمعت في بيت الحسين لدعوته والخروج معه ومن حولها كل النساء من زوجات وبنات ومن حرائر وإماء ، ولعلها علمت منذ ذلك الحين انه قد القي عليها عبء ثقل ، عليها ان تقوم به مهما كلفها من عمل وجهد .

وكانت الاحداث تجري متتابعة في سرعة ، ولم يكن لزينب كارهةً او راضيةً الا النزول على حكم هذه الخطوب ، وقد حدث ان بدا فزعها ظاهراً لانها كانت ترى الاحداث الجسام على عينيها وبالقرب منها ، والمسؤلية الكبرى توشك ان تنتقل عن كاهل الحسين اليها لو قتل الحسين ، ما من ذلك بدّ ، ولم تكن زينب في ثقة من ان احداً من رجال اهل البيت سيبقى ، حتى ولا ذلك الصبي المريض الذي عنيت به وسهرت من أجله ، فقدّر له ان يبقى ، وهو زين العابدين .

بدا فزعها ظاهرا . ولم تكن لتجهل حقيقة المقادير التي تجري ولا جلالها وخطورتها ، وقد جرت على بيت ابيها احداث من قبل ، ولكنها لم تكن تجري على مشهد قريب من عينيها ، ولم تكن لتحمل شيئا من تبعتها او تلقى عليها اثقالها ونتائجها ، بل كان الرجل يحمل عن الرجل ، والبطل ينشأ بعد البطل ، أما حادث الحسين فهو حادثها هي ، وهو حادث فريد في بيت هاشم ، اذ لم يعرف من قبل ان انتقلت الولاية فيه من الرجال الى النساء ، وفي حومة الحرب ، بل لم تكن هناك نذر بذلك ، أما اليوم فقد حدث ما لم يكن في الحسبان .

وبدأت زينب تبكي ثم صرخت ثم ولولت ولم يكن عليها من بأس ان تفقد رشدها ، الا انها لم تفقده ، او يخرجها الحزن عن القصد ، ولكنها لم تخرج عنه ، وكان ذلك من الخير لبيت هاشم فقد حان له ان يحتاج الى يدها ، فطرحت خباءها في المعركة يحرسها عقل متزن ورأي مقتصد ، وسُمع صوتها يئن ويشكو ، لأنه سيسمع وشيكا وهي تجادل عن حقها وحق اهلها كما كان يجادل اخوها ، وسيسمع صوتها وشيكا تخطب في الموقع بعد الموقع كما كان ابوها يخطب المواقع ويوقر المسامع ويثير الحروب .

●

وكان للارض وقدة صيف لا تنطفىء. ومُنعَ الماء عن اهل البيت فلا هو يحمل اليهم ولا هم يصلون اليه . وطغت كارثة العطش ولو قُدّر للارض ان تسقى بعارض من مياه البحر ما ابتلّت ، فكيف بالمهج والنفوس وكيف بالصبية والاطفال ! . واحست زينب الكارثة فجعلت تعطش وتقتصد من جُرع الماء التي تنتزع من ايدي العدو انتزاعاً لتسقي الاطفال في الخيام ، حتى اذا غاب الماء عن خيمتها وجفّ في قدورها حملت عبد الله طفل الحسين تعلله ليسكت من بكائه ، تهزه وتقوم به وتقعد ، لعل الجهد يعييه فينام ، وكذلك فعل مثلها النساء في خيامهن

بأطفالهن اذا نضب الماء . فلما كانت ليلة التاسع من المحرم ونضب الماء في الخيام جميعاً وجفت الاواني واشتعل بالاطفال لهيب العطش وتوقع النسوة للاطفال الجرعة من الماء فلم يجدنها قالت سكينة بنت الحسين في نفسها أمضي الى عمتي زينب لعلها ادخرت لنا شيئاً من الماء ، فمضت فرأتها جالسة وفي حجرها عبد الله الرضيع اخوها وهو يلوك بلسانه من شدة العطش ، وعمته تعلله لعله ينسى او يجد الجهد فينام . فلما رأت سكينة ما رأت خنقتها العبرة ولزمت الصمت ولم تسأل عن الماء ، ولكن امر سكينة لم يخفَ عن عمتها فليس شيء هناك يُسعى اليه غير الماء . فنظرت الى بيت اخيها فرأتها تخنق عبرتها وتحبس صوتها فقالت لها : ما الذي ابكاك يا سكينة ؟ قالت : حال اخي الرضيع ابكاني !

وسكينة تريد الماء ، وقد صارت تريده اكثر لما رأت اخاها عبد الله على تلك الحال ، فقالت لعمتها : قومي بنا الى خيام الرجال من اهلنا لعلهم ادخروا شيئاً من الماء . فقالت زينب : ما اظن ذلك . ولكنها خفت مع ابنة أخيها لعلها تجد ماء للطفل ولها ، وحملت زينب الطفل ومضت مع سكينة تخترقان الخيام لعل الظن يكذب وليته كذب ! وما زالتا تطرقان ابواب الخيام باباً باباً وهما لا تجدان ماء حتى طرقتا ابوابها جميعاً .

وكانت ان رأت زينب وسكينة في اكثر الخيام اطفالا عطاشاً ، ومن كان منهم رضيعاً كعبد الله كان يلوك بلسانه ، وامه أو امته تقوم به وتقعد ، تعلله لينام ، ومن كان منهم ينطق صرخ في وجه زينب يستغيث بها ويطلب ماء ، وهي لا تجيب ولا تتكلم ، ثم عادت وقد خفضت رأسها وهي تهز عبد الله بين يديها وعلى يسارها سكينة تمسك دمعها وتصبر على عطشها ، ومن خلفهما عشرون طفلاً وطفلة يطلبون الماء ويقولون : يا عقيلتنا ، العطش العطش ! الماء الماء !(١) .

فلما كانت ليلة العاشر أصغت زينب الى خيام الرجال فلم تسمع بها صوتاً ، قد سكتت فجأة وكأنما لم يبق بها احد ، حتى خيمة أخيها الحسين قد سكتت فلم يبق بها صوت ولا حركة ، فاستوحشت زينب وذُعرِت ، ولم تلبث ان اسرعت الى خيمة اخيها فنظرت الى داخلها من خلفها فرأت الحسين جالساً وحده وهو يناجي ربه ويتلو القرآن ، فلما رأته أحزنها ان لم تجد رجلا معه ، قد تركوه وحده وتفرقوا الى خيامهم ، فقالت في نفسها والله لأمضينّ الى اخوتي وابناء عمومتي وأعاتبهم في ذلك . ولم يكن اسرع من ان جاءت خيمة أخيها العباس ، وما كادت تدنو منها حتى سمعت همهمة وكلاماً خفياً ، ودمدمة وغضباً مختنقاً ، فوقفت عند ظهرها ثم نظرت

(١) معالي السبطين ج ١ ص ١٩٦ .

فيها فوجدت الرجال والفتيان والصبيان من بني هاشم قد اجتمعوا كالحلقة على اخيها العباس وقد جثا على ركبتيه وتمكن من جثمته كأنه أسد جثم على فريسته وهو يقول :

اخوتي وبني اخوتي وابناء عمومتي ، اذا كان الصباح فما تقولون ؟ قالوا : الامر اليك فانظر ماذا ترى ، قال : ان أصحابنا وأنصارنا قوم غرباء عنا ، والحمل الثقيل لا يقوم الا بأهله ، فاذا كان الصباح كنتم اول من يبرز للقتال . نسبق أنصارنا الى الموت ، لئلا يقول الناس قدموا أصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسيافهم ساعة بعد ساعة . وما كاد العباس ينتهي من مقالته حتى هبّ بنو هاشم وسلوا سيوفهم ولوّحوا بها اليه قائلين : ونحن على ما أنت عليه !

فلم تملك زينب عبرة الفرح لما رأت وسمعت ، وكان ذلك اول ما سكنت نفسها واطمأن قلبها ، ولم تلبث ان أحسّت نفسها مسرعة الى اخيها الحسين تبشره بما رأت وسمعت وتبعد عنه وحشته وانفراده . وبينما هي في طريقها تخف وتسرع من خلف الخيام وقد دنت من خيمة حبيب بن مظاهر اذا بها تسمع في خيمته مثلما كانت سمعت في خيمة أخيها العباس .

سمعت همهمة وكلاماً خفياً ، وسمعت دمدمة وغضباً مختنقاً ، فمالت الى الخيمة ووقفت بظهرها فوجدت أنصار الحسين من غير بني هاشم قد اجتمعوا كالحلقة على حبيب بن مظاهر وقد جثا وجثم كما كان العباس وهو يقول : يا اصحابي ، اذا كان الصباح فماذا تفعلون ؟ قالوا : فالامر اليك فانظر ماذا ترى ؟ قال : فاذا صار الصباح كنا أول من يبرز الى القتال ، نسبق بني هاشم الى الموت ، فلا نرى هاشمياً مضرجاً بدمه ، لئلا يقول الناس قدمناهم الى القتال وبخلنا عليهم بأنفسنا ! فسلّ الانصار سيوفهم وهزوها ولوّحوا بها اليه قائلين : ونحن على ما انت عليه !

وانطلقت زينب كما تنطلق الورقاء وهي تبتسم ، قد غمرها السرور وطفا منها على وجهها أثر رد عليه لمحة حسنه وكمال بهائه ، وانطلقت تريد الحسين لتخبره وتسرّه ، وما هي الا خطوات حتى رأت الحسين مقبلا فاعترضها من وراء الخيام فهشّ لها وعجب لابتسامها وتلقاها قائلا : أخيه ، منذ رحلنا عن المدينة ما رأيتك مبتسمة ! فأخبريني .

قالت : يا أخي ، رأيت من فعل بني هاشم ومن انصارك ما سرني . فقال لها : فما رأيت ؟ فقصت عليه ما رأت وما سمعت ، فعاد الحسين أدراجه الى خيمته ثم أرسل يدعو اليه انصاره من الناس دون بني هاشم ، قد أخذته الشفقة عليهم كما أشفق اخوه العباس ، وأراد أن يخفف عنهم العبء ، فالعب الثقيل لا يقوم الا بأهله ، قد رحم الحسين الناس ، وبنو هاشم أجدر الناس برحمة الناس .

ثم ما لبث الحسين أن اشفق على اهل بيته ان يصرّعوا وليسوا بمطلوبين ، فهو وحده

المطلوب ، فناداهم ، حتى اذا كانوا جميعا عنده قال : هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في السواد والمدائن حتى يفرج الله فان القوم يطلبونني ، ولو قد أصابوني لهَوْا عن غيري ! فقال له أهله من بني هاشم : لِمَ نفعل لنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك ابداً . فأخذ الحسين يكلمهم بيتاً بيتاً وهم يأبون ان ينصرفوا .

ثم قام قائم من الانصار فقال : أنحن نخلي عنك ولما نعذر الى الله في اداء حقك ؟ أما والله حتى اكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى اموت معك ! وكان هذا القائل مسلم بن عوسجة ، قاله فتبعه الناس يقولون مثل ما قال[1] .

ثم قالوا جميعا : يا أبا عبد الله ، ايذن لنا أن نُغير على القوم ونبدأهم بالقتال ونقاتلهم حتى يفعل الله بنا وبهم ما يشاء . فقال لهم الحسين : ـ وهو اعلم الناس بشريعة الاسلام ـ ما كان لنا ان نبدأ بالقتال حتى يبدأونا[2] .

فلما كان ضحى اليوم العاشر أطلق جند ابن سعد سهامهم وبدءوا القتال ، فعُقِرت خيول الحسين ، وصار بنو هاشم وانصارهم من الرجالة ، وما كان الرجل منهم يجد من الخيل الا ما اصطبغ بدمه . واقبل انصار بني هاشم على الموت اقبال القديسين على شهيّ العبادة ، وزحفوا على القوم زحف الآجال المحتومة . كانوا كالليوث المغضبة اذا شدوا على الخيل فرَّت فثقفوا الهام ووطئوا الأجسام ، ولم يلبثوا أن قضوا جميعا كما يقضي القديسون ، وهم دائما اقرب الى الهلكة من ابطال الثورات ومن الغزاة الفاتحين .

وما كاد هؤلاء يموتون حتى صار القتال الى بني هاشم ، فصار سباقا الى الموت[3] أيسر ما فيه على نفوسهم أن تطيح الايدي وتسقط الرؤوس . ثم عَجِلت رحى الحرب في دورتها فدنت المعركة من ختامها حين خرج للقتال عليّ الاكبر ابن الحسين .

كان علي الاكبر ابن الحسين اعلق عيناً بأبيه من كل عين فكلما خفق الحسين برأسه خفقة أسرع اليه ابنه هذا يسأله ويخفف عنه ويدعو له بالنصرة . وقد قال له ابوه حين بلغوا الطفّ وبدأ التناوش : انها انفسنا نعيت الينا . فقال له علي : يا أبت ، لا أراك الله سوءا ، ألسنا على

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣١٨ .
(٢) معالي السبطين ج ١ ص ٢٠٩ .
(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٣٣ .

الحق ؟ قال الحسين : بلى والذي اليه يرجع العباد ، فقال علي : يا ابت ، اذن لا نبالي ، نموت محقين . فقال له ابوه : جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن ابيه[1] ! .

وكان الهمّ ينجلي عن نفوس اهل البيت اذا نظروا الى وجه عليّ هذا[2] ، فاذا اشتاقوا او اشتاق اهل المدينة الى النبي نظروا الى علي الأكبر ، فقد كان شبيهاً برسول الله ﷺ . أما الحسين وزينب فقد كانا مغرمين به يحبانه حباً شديداً فاذا رآه ابوه او رأته عمته تهلل وجههما ولم يكتما سرورهما ، ولم يسأل عليّ اباه الحسين حاجة الا قضاها له لم يرده ابداً .

فلما اشتد السباق الى الموت جاء علي هذا يستأذن اباه في القتال فأذن له . وما كاد يأذن له حتى اقبلت زينب واجتمع اليه نساء بني هاشم وأحطن به وأمسكت به عمته ثم رجونه ان يستأني ولا يستعجل الى القتال ، فليس بهن طاقة لفراقه . ولكن رجاء النسوة لم يجد سبيلا الى قلب فتى في التاسعة عشرة من عمره وهي سنّ الشجاعة والاقدام بلا تردد في كل فتيان الدنيا ، فاذا كان الفتى من بني هاشم فاية قوة تثني عنانه او ترده عن الاقدام ؟

وألح الفتى مترفقاً على عمته لتدعه ، وعلى نساء اهل البيت ليتركنه[3] فلما خرج الغلام الى القتال هابه القوم فتأخروا ، فقال ابن سعد لطارق بن كثير : اخرج الى هذا الغلام فائتني برأسه ، فقال له طارق متهكماً : انت تأخذ ملك الري وانا اخرج اليه ؟ فان تضمن لي الى الامير امارة الموصل أخرج اليه ! فقال له ابن سعد : قد ضمنت لك امارة الموصل . ثم نزع خاتمه فأعطاه اياه ليكون ميثاقاً على ضمانه ، فأخذه طارق ثم خرج للغلام .

ولقي طارق علياً ليأخذ فيه امارة الموصل وتبارزا فما هي الا هزّة حسام حتى كان طارق جثة معفرة ، وقد تعفّر معه في الارض ميثاقه ، لم يحتمل من عليّ غير ضربة جدلّته تجديلا . ثم خرج له الرجل بعد الرجل وهو يجدّلهم ويصرعهم . حتى اذا يئس ابن سعد أمر القوم بان يرموه عن بعد رميَ الجبناء ، فتكاثرت عليه السهام شائعة من الناس كأنها شآبيب المطر ، فخرّ الغلام[4] .

ثم اقبل عليه الجبناء ـ وما اكثرهم واشجعهم حين يذهب الخوف ـ فأخذوا يقطعون جسده بالسيوف ، ينتقمون منه ، او يكذبون أنفسهم بأنهم قد تشجعوا فغمسوا أسنتهم في دماء

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٢) معالي السبطين ج ١ ص ٢٥٤ .
(٣) معالي السبطين ج ١ ص ٢٥٠ .
(٤) معالي السبطين ج ١ ص ٢٥٥ .

الأسد ، وحدث ذلك كله وأمه ليلى بنت ابي مرة[1] واقفة بباب فسطاطها تنظر اليه ، قد جمد قلبها ودمها فلم تبك ولم تتقدم ، قد القت أمرها الى العقيلة الكبرى كما القى اليها أمرهن جميع النساء .

وما كاد الخبر يبلغ الخيام حتى خفّت زينب من خيمتها وهي سافرة ، وكان اول ما خرجت الى المعركة ، بلغته قبل ان يبلغه أبوه الحسين ، وأكبّت بنفسها عليه تضمه وتجمعه وتلّم منه ما تناثر ، وجاء الحسين فرأى اخته فأخذ بيدها يردها الى الفسطاط . ثم أقبل الحسين على ابنه وأقبل فتيانه اليه ، فقال احملوا أخاكم فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي فسطاط قريب . وما هي الا ساعة حتى كان «عوْن» بن زينب ابن عبد الله بن جعفر قد قتل وحملت جثته الى جثة علي الأكبر ، ثم القيت اليهما بعد برهة قصيرة جثة اخيه محمد بن عبد الله بن جعفر ، ثم القيت اليهم جثث ما تبقى من الفتيان .

ولم تخرج زينب لترى ابنها «عوناً» او تجمعه وتبكيه او تبكي اخاه محمداً ، ولكنها جمدت ، قد اجمدها عليّ الأكبر وأفعم قلبها بالحزن وأيأسها فلم تجد شيئاً جديداً من الموت حين جُدّل ابنها وصُروع أخوه ، ولم يبق امامها احد من اهلها تأسى عليه وتفديه لو استطاعت الا الحسين ، فاذا ذهب الحسين فليبق واحد من عقبه لئلا تنقطع من هذه الارض سلالة الرجال من امها فاطمة الزهراء .

وكان النساء قد صِحن في خيامهنَّ وامامها حين جاء الحسين وفتيانه بجثة علي الأكبر فقال لهنّ : اسكتن فان امامكن البكاء ! ثم لم يملك هو نفسه فبكى وعلا صوته به ، ولم يُسمَع صوت الحسين عالياً في بكاء حتى قتل ابنه عليّ ، ولكنه لم يلبث ان أمسك ثم نهض قائماً .

ووقف الحسين برهة فضاق به الأمر . نظر الى خيام بني ابيه فرآها قد خلت ، فنظر الى خيام بني عقيل فوجدها قد خلت ، فالتفت الى خيام اصحابه فلم يرد احداً ، فجعل يقول ويردد قوله : لا حول ولاقوة الا بالله العظيم ، ثم جعل يتلفت الى الخيام ويتأملها رويداً رويداً كما يتلفت الاسد ويتأمل ، ثم اخذ يخطو في مهل ، ثم نادى اخته زينب فطلب اليها ان تجيئه بطفله عبد الله .

وما كاد الحسين يحمل طفله بين ذراعيه ليودعه حتى جاء الطفل سهم ذبحه من نحره ، فحفر له الحسين بسيفه حفرة ودفنه فيها . ثم مضى الى خيمة زينب ليرى ابنه زين العابدين ، وكانت العلة قد اثقلته ، وعمته عنده قد تجمعت عليه كما تتجمع على شبلها لباة العرين . فلما

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٤٠ .

دخل الحسين على ابنه همَّ زين العابدين ان ينهض فلم يستطع ، ولم يلبث زين العابدين ان سأل اباه قائلا : وأين عمي العباس ؟ فطفرت الدموع على عيني زينب ولم تستطع كتمانها وخنقتها العبرة ، فعرف زين العابدين ، فلم يملك ابوه ان يكتم عنه فقال له : يا بني ، قُتل عمك العباس على شاطىء الفرات ! فبكى زين العابدين وجعل يسأل عن اهله الذين غابوا عن عينه واحداً واحداً وابوه يجيبيه : قد قتل . ثم صمتا ، ثم قال الحسين : وليس في الخيام يا بنيّ الا انا وانت !

قال زين العابدين لعمته زينب : ياعمتاه ، اليّ بالسيف والعصا . فقال ابوه : وما تصنع بهما ؟ قال : أضرب بالسيف وأتوكأ ، فانحنى عليه الحسين يقبله ويسكّنه فانه لا قدرة له على القتال . ثم خرج الحسين تتبعه زينب الى خيام النساء[1] .

وذهب الحسين يودّع النساء فودّعهن مترفقاً ودعا لهن . ثم نظر الى زينب ولم تفارقها الدموع فقال لها : مهلا أخية ، ان البكاء طويل . ثم اراد أن يخرج من الخيمة فأحاط به النساء يتزودن منه وهنَّ حياري ، فسكّنهن ثم نادى زينب وجعل يدعو لها ويسكن قلبها ويحذرها ان تجزع وكأنما يريد ان يقول لها : لقد القيت عليك حمل بني هاشم وحمل ذريتي ، وحملت زينب ما حمّلها الحسين فقالت له : يا بن امي طب نفساً وقرّ عيناً فانك ستجدني كما تحب . ثم خرج الحسين فركب فرسه وانطلقت زينب آخذة بزمامه في مكان اخيها العباس ومضت تقوده بين الخيام ، حتى اذا دنت من مرأى القوم ردّت على هامة الفرس عنانه واطلقته فانطلق بالحسين كالزوبعة العاصفة يسفّر وجوه الرجال[2] .

وفزع القوم حين جال الحسين ، وكفّت عنه بعض الايدي تتقيه ، وكفّ هوَ عمن كفَّ عنه رحمة وتعاظما ، وطارت الرؤوس التي نالها سيفه كأنها حمم قذف بها جوف الزلزلة ، ولم يَعُدْ من بدّ ان يلجأ ابن سعد الى ما يلجأ اليه الجبناء اليائسون ، فافترق القوم عنه ثلاث فرق إحداهن بالنبل والسهام وفرقة بالنار والحجارة وثالثة بالسيوف والرماح ، فاذا عجزت الأولى عن ردّه تلقته الفرقة بعد الاخرى ، وأمر القائد بالسهام والنبال فترامت عليه طائرة من بُعد ، وجعلت تترامى وتكثر وتنهال حتى عاد كالطائر وعليه الريش من سهام ، وصارت درعه الضافية عليه كأنها الشوك في جلد القنفذ[3] .

---

(١) معالي السبطين ج ٢ ص ١٤ .
(٢) معالي السبطين ج ٢ ص ١٤ .
(٣) معالي السبطين ج ٢ ص ١٩ .

وسبقت زينب الريح الى اخيها حين رأته قد طُرحَ عن فرسه ، وسبقتها سكينة ابنته اليه ، فبلغته قبل عمتها لخفتها ، فما زالت صغيرة ، وما كادت سكينة تعتنقه حتى انبرى لها جماعة من الجفاة فدفعوها عن ابيها فارتدت وهي تبكي[1] . وبينما كان أولئك الجفاة يردون سكينة كانت زينب قد اكبت على اخيها تجمع رأسه الذي انفصل عنه الى جثته وتقبل نحره من المكان الذي قبّله منه جدهما رسول الله ، فلما رآها الجفاة الغلاظ مالوا اليها يردونها فلم يستطيعوا فانهالوا عليها يلهبون ظهرها بالسياط . ثم تذكرت فجأة انها تركت زين العابدين في خيمتها فابتعدت واتكأت على نفسها ومضت الى خيمتها وهي تقول : اخي ، لو خيّرت بين الرحيل والمقام عندك لاخترت المقام ولو أكلت السباع من لحمي ! ولقد كللت عن المدافعة لهؤلاء النساء والاطفال[2] .

ولم تكد زينب تصل الى خيمة زين العابدين حتى اشتعلت النيران في خيمات النساء ، فقد امر ابن سعد ان تحرق خيامهن وتقوض عليهن حين علت اصواتهن بالصياح والبكاء لقتل الحسين . وبينما كان النسوة يبحثن عن ملجأ للهرب من النار كان الرجل بعد الرجل يروّعهن برمحه فيلوذ بعضه ببعض ، والآثمون من القوم يمدون ايديهم فيأخذون ما تمتد اليه من قرط أو خمار أو سوار .

وَجَرت فاطمة الصغرى بنت الحسين من رجل غليظ فلاذت بعمتها أم كلثوم ، ولكن الرجل تبعها فمدّ يده الى قُرطها لينتزعه فقطع اذنها فسقطت مغشياً عليها . فلما افاقت مما أصابها رأت عمتها ام كلثوم واقفة على رأسها وهي تقول لها : قومي نمضي ، فقالت : هل من خرقة أستر بها رأسي عن الناس ؟ فقالت : يا بنتاه ، وعمتك مثلك ما تركوا لها شيئاً تستر به رأسها[3] . قد اخذ القوم كل مافي الخيام من ورس وحلل وانتهبوها . وجعلت المرأة من نساء الحسين واهل البيت تُنازَع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهبوا به منها ويتركوها حاسرة ممزقة الجلباب[4] .

وبينما كان ذلك كله يحدث كانت زينب واقفة بباب خيمتها التي لم تشتعل بعد ، تسدّ الطريق لئلا يصل احد الى الفتى المريض . ولكنها فوجئت برجل ازرق العينين كأنه من غير

---

(١) معالي السبطين ج ٢ ص ٣١ .
(٢) معالي السبطين ج ٢ ص ٣٢ .
(٣) معالي السبطين ج ٢ ص ٥٠ .
(٤) الطبري ج ٤ ص ٣٤٦ .

العرب قد جاء الى الخيمة يريد دخولها فدفعته زينب فدفعها ومضى الى الخيمة وأخذ يجمع مافيها ، ثم نظر الى زين العابدين فرآه ملقى على نِطْع من الأديم فجذب النطع من تحته ورماه على الأرض ، ثم التفت الى زينب وهو خارج فمدّ يده الى قناعها فاستلبه فرأى قرطين يتدلّيان من اذنيها فمدَّ يده يعالجهما ليأخذهما فلم تدعه زينب يتعب نفسه في علاجهما فخلعتهما له وأعطته اياهما ، فما عادت بها حاجة الى طُرفة من الطرف ولا زينة من خُدع الدنيا .

ومضت زينب بعد المعركة ومن حولها النساء من حرائر وأماء يجمعن جثث القتلى ويلممن أشلاءها ، فجمعن خمسة من اخوة زينب ، هم الحسين اخوها الشقيق واربعة من فاطمة بنت حزام ام البنين ، وجمعن ثلاثة من زوجها عبد الله بن جعفر احدهم ابنها عون ، وجمعن ثلاثة من اخويها الحسن والحسين ، وسبعة من بني عقيل بن ابي طالب .

جمعت زينب وجمع معها النساء جثثاً لثمانية عشر رجلا وفتى كانوا خير من يمشي على الأرض من ابناء آدم ، وجمعتهم زينب جميعاً ثم وقفت نحو رؤوسهم ثم أخذت سمتها واتجهت بوجهها نحو الكعبة ورفعت رأسها وأشارت بسبابتها الى السماء وهي تقول : اللهم هذا فداء أهل البيت فتقبل من اهل البيت هذا الفداء ! .

وكذلك القي على جانبي الطفّ بثقلين لم يتعادلا ، وكان هذا وحده كافياً لأن يكون شجىً في حلوق بني هاشم حتى ولو لم يُقتلوا او يقتل من انصارهم احد . فقد جاء بنو هاشم ومعهم الحجة والبيان ، وجاء اعداؤهم بشرذمة من الجهال والاوغاد وقطاع الطريق والمتلوثين بالدماء في الحروب لايعرفون حقاً ولا حجة ولا يكادون يفقهون حديثاً .

وجاء بنو هاشم ليدافعوا عن البناء الذي بنوه والدين الذي بعث بينهم والعدل الذي يرتضيه الله لعباده ، وجاءهم اعداؤهم بالصلف والغباوة ، ويا ليتهم خرجوا اليهم بأنفسهم ليلقوهم ، ولكنهم اختبأوا وراء قصورهم وتحصنوا وراء جدُر من الجند والأموال التي تجبى اليهم ليقوم عنهم في ميدان القتال اولئك الجهال والأوغاد وقطاع الطريق والمتلوثون في الدماء .

وجاء بنو هاشم يحاربون بالحق والصدق والايمان ، وجاءهم اعداؤهم بتجارة الكذب وخداع السفهاء . وكان من الظلم ان يلتقي أصحاب الحق والحجة والبعث والايمان في ميدان يمتلىء بغوغاء الناس وخشاش من أهل الارض ، ولو التقى بنو هاشم بأكباد بني امية لما لبثت هذه الأكباد ساعة من زمان حتى تُفري بيد الفتية والصبيان ! ولكن اللقاء ـ كما كان ـ كانت فيه القرحة التي لاتلم والجرح الذي لا يندمل .

ومن دون ذلك كله مضى الحسين ليحمي قدسية الدين ومقام الخلافة بالثورة على مغتصبيها ، ولم يرَ الحسين بأساً في ان يلقى الشهادة في صورة هزيمة نكراء لأنها مالبثت ان

فضحت تيجان امية وارتدت اليها تسليها لآلئها وتطفىء عنها أضواءها ولألاءها .

لقد كتب للحسين بن علي والرجال من أهل بيته وأنصاره ان يبرزوا الى مضاجعهم ، ولم يشبع جشع الموت حين اكلهم فأطلّ برأسه يشتهي ثلاثمائة آخرين من أكابر المهاجرين والانصار تخلفوا عن الحسين وظنوا ان القعود عنه ينجيهم ، فلم ينجهم القعود ، وسافر الموت اليهم وتسلق ديارهم فسفك الدماء وهتك الحُرَم وعطّل العبادة وهدّ الحرَم .

ولقد علم هؤلاء حين جاءهم الموت الى ديارهم ان الحسين بن علي كان على صواب فندموا حين لا ينفع الندم ، ورفرفت عليهم روح الحسين مشفقة بعد موتها كما كانت تشفق عليهم في حياتها . ولو قدّر للحسين ان يبقى لردَّ عنهم الغائلة ودفع عنهم البلية ، ولكنهم كانوا بعده أهوَن على يزيد وجند يزيد فتقصفوا كما تتقصف الاعواد الهشة اليابسة في هبَّة الاعصار .

أما الحسين فلم يكن به من بأس حين انقض عليه جنود ابن سعد من كل أثيم جبان ، وازدحموا على ضربه بعد ان مات كأنهم شجعان ، وطعن في جسده بعد منافذ السهام طعناتٍ لاتعد ، وفُصل رأسه عن جسده . وما بأبي عبد الله في كل ذلك من بأس فقد يصاب بمثله أجبن الناس وأوضعهم حسباً ونسباً اذا كان في مرمى السهام .

ولكن آثاراً ثلاثة وآثاراً اربعة بقيت في جسد الحسين ، لم تقوَ يد الموت على محوهن ولن تقوى يد البلى : آثار في القدمين كأنها شقوق من خمس وعشرين مرة حجها الى بيت الله الحرام ماشياً ملبياً ونجائبه تقاد معه من المدينة الى مكة ليس عليها راكب . وعضة غليظة في ظهره بين كتفيه من كثرة ما حمل جرابه الى منازل الارامل واليتامى والمساكين في دجلة الليل . ولمحة حسنٍ في الوجه كأنها لمحة الصبح ورثها عن جده رسول الله ، وابتسامة في الثغر من فرط الصدق والايمان كأنها ابتسامة الضياء وراء بحر مدلهم من كثيف الغمام .

«كتاب زينب عقيلة بني هاشم بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٥٣ دار العلم للملايين» .